بين مرحلتين

بدخولى « الجامعة » أقبلت على حياة جديدة لمستها وتبينتها من الكتب التى كنت أقرأ فيها ، وهذه الجديدة التى أدرسها الآن ؛ ومن أسلوب تلك وأسلوب هذه ، ومن اختلاف طرق الشرح والتبيين لمدرسى الجدد ، ومدرسى القدماء الذين خلفتهم ورائى .

قرأت كتب الدراسة الثانوية ، وهأنذا الآن أدرس فى الكتب الجامعية فعرفت الفرق بين التشويش والاضطراب فى تلك ، وبين الانسجام والاتساق فى هذه .

وعرفت التفاهة والسطحية ـ أو هكذا خيل لى ـ فى أسلوب بعض تلك الكتب ، ولمست العمق ، واتساع الفكر ، وحلاوة البيان ، فى هذه .

وأكثر من هذا تبينت فى حياتى الجديدة مدى الاعتراف بوجودى كشخص يفهم ما للمسؤولية من معنى ؛ فرأيت الأنظمة والقوانين التى تحكمنى فى هذه المرحلة الجديدة ، مغايرة لتلك التى كنت عليها والتى كنت أحس بثقلها على نفسى وشعورى ، فأنا الآن أقرب إلى الانطلاق والحرية الحرية التى يفصلها عن الفوضى مدى شاسع ولا يصح الخلط أبداً بين الحالتين كما يحلو البعض ـ مع الأسف الشديد ـ عن عمد وعن غير عمد .

وأسمى من كل هذا وأجل وجدتهم يخاطبوننى ـ فى هذه المرحلة الجديدة ـ كمن شب عن الطوق لا من قصر عنه ، وفى هذا ما فيه من خلق وتهيئة وإعداد .

اشتريت كتبى الجديدة المقررة لهذا العام فقرأت فى إحداها هذه الكلمة البليغة العميقة ، جاءت كتصدير للكتاب :

« لا يكتب إنسان كتاباً فى يومه إلا قال فى غده لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يستحسن ؛ ولو قدم هذا لكان أفضل ؛ ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

الله أكبر . . . فقد خشعت لهذا الفهم العميق للكمال ونشدانه ، وقد انتشيت لهذه الصياغة المفرغة فى هذا القالب من التركيب الرائع .

والحق أن هذا قانون من قوانين الكون ، فالكمال لا زال ولن يزال فوق مقدور البشر لأن يحددوا الحدود له ، ولعل الخير كل الخير فى عدم الاستطاعة لأنه لو رسمت للكمال حدود لادعى الكثير بأنه قد وصل إليه ولأمست كلمتا « التطور » و « الرقى » بدون معنى .

كررت القراءة لتلك العبارة ثم تساءلت : ترى إلى هذا الحد يتهيب الأستاذ المؤلف فيصدر كتابه بتلك العبارة؟

ويتهيب ممن ؟ من القراء وهم طلابه الذين أخرج هذا الكتاب خصيصاً لهم ؟ ! لكأنه بوضعه لتلك العبارة فى الصدر من كتابه يريد أن يقول يا قارىء الكتاب إنك إن وقعت على خطأ فى مجال التعبير ، أو فى مجال السرد والعرض لفكرة ما ـ والكتاب بل الكتب الجامعية كلها ـ بحر زاخر متلاطم الأفكار والنظريات ـ إنك إن وقعت على خطأ وكل الناس معرض له فتمهل لتمعن النظر كيما تنجلى الحقائق أمام نفسك فتستوثق منها وتتأكد من صحتها . إنه إذن يفترض فيك الروية والإمعان أو على الأصح يوحى إليك بأن تكون كذلك ، وما عليك إلا ان تستجيب له وهاهو ذا ينزل من عليائه ـ وهو الأستاذ وأنت الطالب ـ ليلقاك فى منتصف الطريق فتسيرا معاً : يلقى إليك بالفكرة فلا تسلم بها إلا بعد الاستيثاق والاستنطان فى مآتيها ومداخلها .

نعم هكذا يخاطبوننا فى حياتنا الجديدة وهكذا يوحون إلينا حتى إذا ما أسلمتنا « الجامعة » إلى ثغر الحياة الواسع الرحب وجدنا فى كل ذلك ما ينير السبل أمامنا ويشد أزرنا . وإنه لدرس جديد نتلقاه ونحن لم نكد نستقر بعد على أول عتبة من عتبات « الجامعة » .

« هو »